مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 08 / العـدد: 02 (2022)، ص 657- 674

العلم والميتافيزيقا عند وايتهد

Science and metaphysics Whitehead

شريف حسني خليل[*1]
[1] جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر) cherifhosnikhalil@ymail.com

تاريخ الاستلام: 2021/11/16 تاريخ النشر: 2022/12/25

ملخص:

رغم الاختلاف والتمايز بين كل من العلم والفلسفة إلا أن هذا لا يعني انعدام وجود أي علاقة بينهما، فمن شانهما أن يتبادلا النقد، وان يمد كل منهما الأخر بالمواد الخصبة التي تسمح له بالتقدم،وهذا ما عبر عنه وايتهد في فلسفته الواقعية، ويؤكد وايتهد على ضرورة تلك العلاقة التي هي وحدها كفيلة بنجاح ذلك المشروع الفكري أم فشله، وفي هذا الصدد لا يمكننا إزاحة الميتافيزيقا ودحضها بشكل نهائي، بل يمكن أن نحدد أي نوع أنواع وأشكال الميتافيزيقا التي ستكون كفيلة بمرافقة العلم في كشفهما للحقائق، ويعد موضوع البحث ذو أهمية وهو يطرح إشكالية تتعلق بعلاقة العلم بالميتافيزيقا، هذه العلاقة التي لم تنتهي إلى يومنا هذا، لذا ارتأينا إلى تناول هذا الموضوع بغية توحيد الرؤية ما بين العلم والميتافيزيقا.

كلمات مفتاحية: العلم؛ الميتافيزيقا؛ الإبستيمولوجيا ؛ الانطولوجيا.

Abstract:

Despite the difference and distinction between science and philosophy, this does n't mean the absence of any relationship between them, so they would exchange criticism and provide each other with fertile materials that allow him to progress, this what he expressed and guided in his realistic philosophy and stresses the need for that relationship which is the guarantor of the success or failure of that intellectual project. In this regard, we cannot completely refute metaphysics, rather we can determine which types and forms will be capable of accompanying science in their disclosure of facts, the research topic is of great importance as it tackles that relationship which has not ended until today, hence we decided to address this topic to unify the final version science and metaphysics

Keywords: Science; Metaphysics; Epistemology; Ontology

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

اتسمت الثورة العلمية التي شهدتها أوروبا منذ القرن السادس عشر بظهور نظريات وأفكار جديدة في الفيزياء والفلك والكيمياء والطب وتبني المنهج العلمي الذي يستند علي المشاهدة والتجربة والتحليل العقلاني لفهم الظواهر الطبيعية والقوانين التي تحكمها والقدرة علي التنبوء في كثير من الحالات بأحداث معينة، وتعرض بعض رواد العلم الحديث مثل جاليليو وبرونو لإضطهاد الكنيسة بحجة مفارقة أرائهم لتعاليم الدين، لكن مع مطلع القرن التاسع عشر اعتقد الكثير من المفكرين والفلاسفة بحتمية انحسار نفوذ الميتافيزيقا و الدين أمام تطور العلم الحديث وقدرة العقل الإنساني علي اكتشاف أسرار المادة وقوانين الطبيعة وتسخيرها لرفاهية الإنسان وتحسين حياته المادية، ومن بين هؤلاء عالم الفيزياء والفيلسوف أرنست ماخ الذي أكد أهمية العلم الوضعي وضرورة تنقية العلوم من الغيبيات وعدم إفساح أي مكان في العلم لآراء لا يمكن إثبات صحتها بواسطة المشاهدة والتجربة.

وهاجم كارل بيرسون أصحاب النظم الميتافيزيقية وتعصبهم لآرائهم التي يعتريها النقص وأعلي من شأن المنهج العلمي الذي إعتبره الباب الوحيد لكل حقول المعرفة وركزت فلسفة الوضعية المنطقية التي ظهرت في القرن العشرين علي أهمية الإدراك الحسي والمشاهدة والمنطق الرمزي لبرهان الحقائق التي تكتشفها العلوم الطبيعية، كما هاجم روادها الميتافيزيقا باعتبار أن وصفها للعالم عديم المعني لأنه لا يستند على أسس المنهج العلمي.

لقد احتدمت الصراعات الفكرية فكانت المؤلفات بمثابة أسلحة حرب أطرافها متباينة (العلم، الميتافيزيقا) موجهة بعضها إلى بعض، فقد كانت الوضعية المنطقية تنصب نفسها على رأس سنام العلم والمتحدثة بإسمه وأبرز من مثل ذلك نجد رودولف

كارناب يتصدر القائمة، في حين اكتفت الميتافيزيقا بتلقي الإنتقادات الموجهة من كل صدب وحدب، هذا لا يعني أن الميتافيزيقا اكتفت بالدفاع فقط بل كان لها أيضا أنصارها الذين يرون بأنها في نفس سياق العلم أو تتجاوزه أحيانا، وفي ظل هذه الصراعات الفكرية برز في الأفق الفلسفي شعاع الأمل ما بين العلم والميتافيزيقا، لأنه من حاول أن يفصل أو يوضح العلاقة وحتى الطبيعة بين الإثنين كما ينبغي لها أن تكون و ليس كما نبغي لها نحن أن تكون، إنه الفيلسوف الإنجليزي ألفرد نورث وايتهد*، هذا الأخير الذي تبحر في غمار العلم لينفتح على أسوار الميتافيزيقا التي لطالما كانت شغله الشاغل. تتأتى أهمية هذا الموضوع في تحليله للبعد الإبستيمي لكل من العلم ومنهجه والميتافيزيقا وحاضنتها الفلسفية، فهي تشير إلى طبيعة العلاقة بينهما قديما وحديثا، بل وأكثر من ذلك سوف نحاول من خلال ذلك إبراز البعد المستقبلي لما ستؤول إليه هذه العلاقة بين العلم والميتافيزيقا.

كيف نظر وايتهيد لأهم المشاكل الفلسفية التي تطرحها الفلسفة المعاصرة مقارنة بالعلم ؟ فقد تطرق وايتهيد لعدد من المشاكل الفلسفية الميتافيزيقية والتي تتصل بأهم التطورات العلمية المعاصرة التي تطرحها العلوم المعاصرة في شتى المجلات مقابل الركود الميتافيزيقي إن صح التعبير.وما هو موقف وايتهد من الميتافيزيقا؟

وللإجابة على هذه الإشكالية فإننا نؤسس لبعض الفرضيات التي نسعى من خلالها إلى توضيح العلاقة بين الفلسفة والعلم من خلال منهج وايتهد الرياضي، فقد اعتبر وايتهد في الكثير من كتاباته على أن الميتافيزيقا جزء لا يتجزأ من الفلسفة وهذا إن دل على شيء فانه يدل على تمسك وايتهد بفكرة تعديل الفكر الفلسفي المعاصر عوضا عن تجاوز

* ألفريد نورث وايتهيد (1861 - 1947) بالإنجليزية Alfred North Whitehead هو فيلسوف وعالم رياضي إنجليزي. يعد هو وبرتراند رسل واضعا علم المنطق الرمزي أو الرياضي. من آثاره: "العلم والعالم الحديث" عام 1925.

وإقصاء الفكر الفلسفي المعاصر مثلما فعل أنصار الوضعية المنطقية مع الميتافيزيقا، إضافة إلى ربط وايتهد للنسق المنطقي الرياضي مع النسق العام المجرد وهذا ما يتجلى بوضوح في مؤلفه مفهوم الطبيعة 1920.

كما أن هدف هذا الموضوع يتجلى بصورة واضحة من خلال القضايا التي طرحها وايتهد عبر فلسفته والتي تمثل من أولويات المشكلات الفلسفية للعلم المعاصر عبر نشاط وايتهيد المخصص للأبحاث الرياضية أو أبحاثه الميتافيزيقية ومن هنا كانت غاية البحث هي تسليط الضوء على تلك المشكلات والحلول المقترحة التي قدمها وايتهيد عبر فلسفته وما تمثله من حلول لمعضلات الفلسفة العريقة عبر مزاوجته بنظرة علمية معاصرة اشتقت أسسها من مبادئ ومقولات الفلسفة المعاصرة.

2- العالم الطبيعي والميتافيزيقي عند وايتهد

كان هدف وايتهد أن يقيم مذهبا للأفكار يستطيع أن يدخل الإهتمامات الجمالية والأخلاقية والدينية في علاقة مع تصورات العالم الميتافيزيقية التي تتأصل في العالم الطبيعي، وهو هدف عبر عنه وجسده في أغلب مؤلفاته ولهذا يعتبر ضد النزعة الدجماطقية وضد النزعة التجريبية الدجماطيقية على حد السواء، ويرتبط وايتهد بتيار كانط لأنه – أولا – يأخذ – وهو العالم بالفلسفة التأملية، وثانيا لأنه حاول أن يجمع بين العلم والدين خلال الفلسفة " فالفلسفة تخلص نفسها من أسر العجز وعدم الفاعلية باتصالها الوثيق بالعلم والدين، طبيعيا كان أم اجتماعيا إنها لتصل إلى أقصى درجات أهميتها بإدماج الإثنين : أي الدين و العلم، في تخطيط أو نظام عقلي للفكر".(p 21 Whitehead ،1978،)

كانت غاية وايتهد، في بداية تطوره الفكري، بمشاكل العلم الحديث، ولقد تعددت الدراسات التي أختلف حولها الكثير من الباحثين حول طبيعة المشاكل التي عالجها وايتهد

في أوائل كتاباته وأخرها، لكن ما يهمنا هو أن وايتهد لم يشك قط في المرحلة الأولى من تطوره الفلسفي وهي المرحلة العلمية في الميتافيزيقا أو يستبعدها، وكذلك لم يشك في المرحلة الأخيرة وهي الميتافيزيقية، في العلم أو يستبعده وعلى هذا فليس هناك ما يبرر القول بأنه في المرحلة الأولى من تفلسفه أي السابقة على المرحلة الميتافيزيقية، كان مناهضا للميتافيزيقا معارضا لها، بل بالعكس، كان العلم في – نظره – لا يقلل الحاجة إلى طلب الميتافيزيقا، فالعلم وحده هو الذي يجعل هذه الحاجة الميتافيزيقية أشد إلحاحا. (رجب، 1986، ص 285)

يصرح وايتهد بأن " المشكلة النهائية هي أن نتصور واقعة تامة أو كاملة، ولن يكون في مقدورنا تكوين هذا التصور إلا على أساس أفكار أو خواطر أساسية تتعلق بطبيعة الواقع وبهذا التصريح يضع وايتهد نفسه في التراث الفلسفي، لأنه يقرر بهاتين العبارتين السابقتين المشكلة الرئيسية والجوهرية التي عبر عنها أرسطو التعبير المأثور التالي "(Whitedead,2004, p56) ومن ثم فهذا الذي سعت الفلسفة إليه منذ القدم ولا تزال تطلبه إلى الآن ولن تنقطع في طلبه دون أن تقترب منه أنه ما هو الموجود ؟ .

وعندما قال وايتهد أن المشكلة النهائية للميتافيزيقا هي أن نتصور واقعة كاملة أو تامة، فانه يقصد بذلك ما قصد أرسطو عندما صرح أن المشكلة : ما هو الموجود بهذا المعنى ؟ وتساؤل أرسطو عن ما هو الموجود ؟ هو بالطبع تساؤل عن ماهية الموجود أو طبيعته، وعلى هذا يمكن القول بأن المشكلة الميتافيزيقية عنده هي مشكلة اكتشاف، ومن ثم نستطيع أن نعيد صياغة عبارة وايتهد على النحو التالي " المشكلة هي أن نكتشف طبيعة واقعة كاملة تامة "، ويعني وايتهد بالواقعة الكاملة التامة ما عناه أرسطو في سؤاله ما الموجود بهذا المعنى.

وعبارة بهذا المعنى تشير إلى الموجود بمعنى " الأوسيا " فبذلك يعني الموجود أو الموجود الفعلي بأكمل معناه، إن هذا هو إذن ما يقصده وايتهد بعبارة واقعة كاملة تامة، وما يهمنا أن وايتهد يتفق مع أرسطو فيما يتعلق بموضوع المشكلة الميتافزيقة، ومع اعتناق وايتهد للمذهب الأنطولوجي وعده أساسيا في فلسفته يعارض صراحة النزعة المتطرفة التي مفادها أنه ما من شيء بيقيني إلا ما أجربه تجربة ذاتية، فوايتهد رأى في المذهب الأنطولوجي قضاء على هذه الصعوبة، لأنه لا يمكن بناء على هذا المبدأ لإدراكاتنا الحسية أو انطباعاتنا الحسية أن ننتج بقوة الذهن الخلاقة، إن مضمون هذا المبدأ الأنطولوجي لفي إتفاق تام مع الفروض السابقة الضمنية التي نسير على حديها، وكما قال وايتهد إن الإدراك العام للإنسانية يتصور أن كل خواطره وأفكاره تشير في النهاية إلى أشياء فعلية أو كما قال نيوتن تشير إلى موضوعات محسوسة. (رجب، 1986، ص 292)

واهتمامنا هنا منصب على تصور وايتهد للميتافيزيقا، ذلك الجانب من جوانب الفلسفة والذي يتميز بأن المشكلة الرئيسية فيه هي : أن يتصور الإنسان واقعة تامة، ولقد أشار وايتهد – كما سبق أن بيننا – إلى أننا لن نستطيع تكوين مثل هذا التصور إلا على أساس أفكار أساسية تتعلق بطبيعة الواقع لتصبح الفلسفة التأملية هي محاولة بناء مذهب او نظام من الأفكار العامة يأخذ بعضها برقاب بعض وبينها صلات منطقية ضرورية، يمكننا بواسطتها أن نجد تفسرا لكل عنصر من عناصر تجربتنا. (رجب، 1986، ص 295)

لا يفرق وايتهيد بين الميتافيزيقا وبين الانطولوجيا، بل لعل من الأصح القول إنه لا فارق عنده بينهما أبداً، وذلك خلافا لما جاء في التراث الفلسفي العريض السابق عليه، والسمة الرئيسية في ميتافيزيقا وايتهيد، وهو أن هذه الميتافيزيقا ذات طابع وصفي ووايتهيد يقبل الميتافيزيقا بوصفها وصفاً للواقع، تستمد منه المبادئ العامة لكل تفسير، ولقد رأينا أن هذا الواقع يتكون من الكيانات الفعلية التي توجد وحدها عنده بالمعنى الكامل

للوجود، ومن الكيانات الأخرى التي تشق أو تجرد من تلك الكيانات الفعلية، وهو يرى إننا يمكن أن نستخلص من وصف واقعة عينية كاملة أو بناء من الكيانات الفعلية.

3- الفرق بين الفلسفة والعلم

ويشير وايتهد إلى أن الفلسفة والعلم كليهما يهتم بفهم الوقائع الفردية بوصفها توضيحات لمبادئ عامة، والمبادئ تفهم تجريدا، والوقائع تفهم في تجسيدها للمبادئ، ومعنى هذا أن الفلسفة والعلم كليهما في أساسه محاولة لفهم الأشياء على أساس المبادئ العامة، وعلى هذا فوايتهد يعرف الميتافيزيقا بأنها دراسة الخصائص أو المميزات العامة للكائنات الفعلية، او بأنها دراسة الكائنات الفعلية بما هي كائنات فعلية، وهذه الصياغة الأخيرة أوضح من التعريف التقليدي للميتافيزيقا والذي يقول بأنها دراسة للموجود بما هو موجود، ذلك أنها صياغة تستبعد الغموض الذي يلف المصطلح "موجود" والميتافيزيقا – عند وايتهد – تحاول أن تبني مذهبا أو نظاما يصم هذه الأفكار العامة، والميتافيزيقا لابد أن تؤلف مذهبا لأن الأفكار التي تبحث عنها يجب أن تكون مترابطة ومتعلق بعضها ببعض،ويذهب وايتهد إلى أنه ما من كائن او شيء يمكن تصوره مجردا من نظام الكون ووظيفة الفلسفة التأملية هي أن تكشف هذه الحقيقة، ذلك أن ترابط الأشياء بعضها مع بعض يتضمن أن الأفكار التي بواسطتها يمكن تصور هذه الأشياء، لا بد أن تكون مترابطة هي أيضا بعضها مع بعض، وعلى هذا فوايتهد ينظر إلى الإتساق – كما يستخدمه هنا – على أنه يعني أن الأفكار الأساسية يفترض كل منهما الأخر، لدرجة أننا لو قمنا بعزلها فإنها تصبح فارغة من المعنى .

ولهذا فالفلسفة التأملية **speculative philosophy** تحاول تشكيل نسق مترابط ومنطقي وضروري من الأفكار العامة، في مصطلحات يمكن عن طريقها تفسير كل عنصر من عناصر خبراتنا. (**Whitehead ،1955،p 56**)

وما يميز الميتافيزيقا عن العلم او الفلسفة الوضعية هي تلك الأفكار التي تتميز بعموم كامل، ومن ثم فلا يمكن أن تكون أفكار أخرى تكثر عموما منها، وعندما نهتم بأفكار أقل عموما، كما هو الحال في العلم مثلا ، وبإدراك أهمية الإتساق في الميتافيزيقا، يتضح أن النظام من الأفكار لابد أن يكون منطقيا، فوايتهد يذهب إلى أن للمصطلح منطقي معناه العادي الذي يشمل الاتساق المنطقي أو عدم التناقض، إذن لابد لنظام الأفكار الميتافيزيقية أن يكون على الأقل قابلا للتطبيق وقابلية النظام للتطبيقي تعني أن بعض عناصر التجربة قابلة للتفسير بواسطته، ولأن التأمل المعرفي هو وحده الذي يحدث الفارق بين الطبيعيات والفلسفة; وهو الذي بفضله يظهر أن العلوم الطبيعية بالموجود ليست علوم نهائية بالوجود، ثمة حاجة إلى علم بالموجود على معنى مطلق وهذا العلم هو الميتافيزيقا. (هوسرل، 2007، ص 56)

ويقول وايتهد " إننا عادة ما نلاحظ بواسطة طريق الإختلاف **of difference method** ففي بعض الأحيان نرى فيلا، وفي بعضها الأخر لا نراه والنتيجة هي أن الفيل حينما يكون حاضرا يلاحظ أن سهولة الملاحظة تعتمد على الحقيقة القائلة بأن الموضوع الملاحظ يكون هاما حينما يكون حاضرا لكنه يكون غائبا في أحيان أخرى. (41 **1949،p**، **Whitehead**)

وإذا تكلمنا بصفة خاصة عن علاقة العلم بالميتافيزيقا سواء كان ذلك من أجل استبقاء أحدهما على حساب الأخر أو استبقاء الإثنين معا أو استبعادهما معا فإن ذلك سيوحي للوهلة الأولى إلى مكان وزمان المقارنة إن صح التعبير، فالميتافيزيقا الأولى كما كان يقصدها أرسطو ليست هي ميتافيزيقا وايتهد بكل ما تحمله الكلمة من معنى وإن كان يتفقان في أغلب الأمور، ولا تختلف عن هذا الأخير فحسب بل نكاد نجد أن الميتافيزيقا امتزجت بشوائب فكرية، إذ أصبح الدال فيها يختلف عن المدلول، كيف لا وهي كما يقول أصحابها أنها تدافع عن قضايا لا تمثلها بالضرورة وإنما بصفة قسرية.

ونفس الشيء ينطبق عن العلم من ناحية الزمان فالعلم عند اليونان مثلا كان محتوى في كنف الفلسفة لا يكاد يخرج عن منطق الحكمة، وسواء كان العلم علما كما نلاحظه اليوم فتلك ليست مسألتنا الضرورية، وإنما ما يهمنا هو على أي أساس أقمنا العلاقة بين العلم والميتافيزيقا ؟

و إذا رجعنا إلى تاريخ العلم مثلا لوجدنا أن الإرهصات الأولى للعلم بنيت على أسس غيبة، روحية، خرافية امتزجت بطابع سحري وكل المؤرخون يكادون يجمعون على ذلك، لذلك كان العلم مرادف للميتافيزيقا رغم اختلافهما في كثير من الأمور حتى في اللبنات الأولى، لكن دلك لم يكن باستطاعته أن يضع فجوة كبيرة بين العلم والميتافيزيقا كما نعرفه اليوم، وذلك بالطبع راجع لعدة أمور لعل أبرزها هو تقدم العلم على حساب الفلسفة، بل وانفصال العلوم كلها، لتبقى الفلسفة ذات غطاء ميتافيزيقي مقابل ذلك الزخم العلمي والتكنولوجي الذي أبهر العالم وأصبح هو مقياس النجاح ومنهج الحقيقة لسائر العلوم، من هنا بدأت الفجوة تتسع بين العلم والميتافيزيقا، وأضحت الصراعات الفكرية تصب في هذا المجال فانقسموا بالإجماع إلى ثلاث فئات، فئة ترى بأن الميتافيزيقا مثلها مثل العلم هدفها خدمة الإنسانية بشتى الطرق وهي بالتوازي مع العلم يتفقان ولا يتعارضان بل ويكملان بعضهما البعض فإذا كان العلم يجيب ويبتكر فإن الميتافيزيقا تدخل من حيث لا يستطيع العلم الدخول، وفئة أخذت زمام الأمور من الوسط فلا هي رفضت الميتافيزيقا ولا هي اقتنعت بها مطلقا.

يمكن القول أننا نسعى إلى توليد الأفكار الصحيحة في هذا المجال، فلن نكون ميتافيزيقيين أكثر من اللازم ولن نكون ممجدين للعلم أكثر من اللازم، إذن وقبل أن نضفي على الموضوع لمسته الأخيرة يجب أن نحتكم إلى ميزان العقل الذي يمنعنا من الزلل في براثين العاطفة التي لطالما إنجازات لما تحمله الأهواء، فإذا تكلمنا عن الميتافيزيقا ينبغي لنا

وقبل كل شيء أن ننوه إلى ضرورة إضفاء الجانب الديني والمتمثل في الإسلام، فالأمور الدينية هناك من يراها على أساس ميتافيزيقي بما أنها غيبة، وهذا صحيح بمعناه الغيبي وليس بمعنى الصواب أو الخطأ، فالإنسان مركب ذو نصفين نصف مادي ونصف روحي يحتاج إلى غذاء روحي، ومهما كان هذا الغذاء إلا أنه يستقي منه ما لا يجده في نصفه المادي لهذا فإن نكران الميتافيزيقا جملة وتفصيلا يعد ضرب من ضروب الجنون الذي اجتاح مفكري أوروبا، وللأسف فهو لم يبقى عندهم بل أضافوا له رونق خاص وصدروه لنا ونحن نستهلكه بكل صدور منشرحة، فإذا كان كل من ماركس مثلا أو أنصار الوضعية المنطقية برمتهم يسعون إلى دحض الأفكار الميتافيزيقية فهم كمن يدور في حلقة مفرغة وهذا ما سبق تفصيله مع وايتهد الذي تفطن لضرورة وأهمية الموضوع.

4- الميتافيزيقا المرفوضة

إن العلم — كائنًا ما كان — يتصف موضوعه بالتجريد والتعميم، والتجريد والتعميم درجات، فحيثما قسَّمت جنسًا — ولنرمز له بالرمز «أ» — إلى نوعَين يقعان تحته — ولنرمز لهما بالرمزَين: «ب» و«ج» — كما تقسم مثلًا العدد إلى نوعَين: العدد الزوجي والعدد الفردي؛ وجدت «أ» أكثر تجريدًا وأكثر تعميمًا من «ب» أو «ج»، وفي مثل هذه الحالة تكون «أ» هي الأساس المنطقي لكل من «ب» و«ج»، بمعنى أنك لا تفهم الزوجية أو الفردية إلا إن كان لديك فهم سابق لطبيعة العدد بصفة عامة، وكذلك إذا فهمت طبيعة العدد فهمًا كاملًا، استتبع هذا الفهم أنه لا بد أن يكون العدد منقسمًا إلى نوعَين: ما هو زوجي منه وما هو فردي، هذا هو المقصود حين نقول إن فكرة «العدد» هي الأساس المنطقي لفكرتَي «الفردية» و«الزوجية».(محمود، 1993، ص 71)

أما الميتافيزيقا عند وايتهد هي ذلك المبحث الذي أطلق عليه أرسطو اسم "الفلسفة الأولى" فهو يوافق على ما تتضمنه هذه العبارة وقد قلنا أن الميتافيزيقا جانب من جوانب

الفلسفة، لأن وايتهد يستخدم مصطلح فلسفة كما لو كان جنسا يقسم إلى أنواع، ومعنى هذا أن الفلسفة ليست مجرد اصطلاح عام يطلق على مجموعة من المباحث المتشابهة، رغم استقلالها واكتفائها بذاتها، فالميتافيزيقا أساسية للمحاولة الفلسفية بأسرها، لأن التصور الضمني عن الواقعة التامة يحدد في نهاية التحليل الإجابات التي تطرح وتلقى بصدد جميع المشاكل الخاصة الأخرى. (رجب، 1986، ص 298)

إذن فلو تخيَّرنا عبارات مما تقوله الميتافيزيقا بمعناها هذا، ثم لو أظهر لنا تحليل هذه العبارات أنها كلام فارغ خالٍ مما يجعل للعبارة معنًى، فلن يكون من حق الناقد أن يقول إننا قد اخترنا جانبًا يؤيّد مذهبنا، وكان يمكن أن نختار جانبًا آخر لا يؤيّده، على أننا نفضِّل فيما يأتي أن نجعل كلامنا عن «المطلق» لا عن «الله»؛ «إذ الموضوع الذي يناقشه كبار الفلاسفة، حين يناقشون فكرة وجود الله، لا يمت إلا بصلة واهية — ذلك إن كانت هنالك صلة على الإطلاق — «بالله» كما تفهمه الأديان، وإنما هو فكرة من تركيب العقل؛ ولذلك يحسن استخدام المصطلح الفلسفي، وهو كلمة «المطلق» بدل اللفظة الدينية «الله» في سياقنا هذا.» (**Wisdom, John Oulton ،1947،p 10**)

من الناحية الابستمولوجية، لا يمكن الفصل بين الكون وما وراءه، فالكون هو كل شيء، وهو حاوي لكل ما نتصوره سواء أكان موجد أو غير موجود، هذا ما جعل كانط يتخيل الفضاء كتمثيل مسبق الوجوب، عليه ترتكز كل ضروب الحدس الخارجي، لا يمكن أبداً أن نتصور أنه لا يوجد أي فضاء أبداً، حتى ولو كنا نستطيع أن نتخيل عدم وجود أي شيء فيه، فالفضاء يعتبر شرطاً لإمكانية حدوث الظواهر، وليس تحديداً يتعلق بها، وهو تمثيل مسبق يُستخدم بالضرورة أساساً للظواهر الخارجية، فالفضاء بوصفه شرطاً للتفكير بالأشياء بالمعنى الخارجي، هو حدس، سابق لكل إدراك حسي بالشيء، من دون أن يكون هو نفسه شيئاً، والهندسة هي التي تحدد تركيبياً وقبلياً خصائص الفضاء.

نحن الآن في زمن التطور التكنولوجي والعلمي عموما، الميتافيزيقا ليست غائبة كما يتصورها البعض ولم تتلاش، رغم سلسلة الهجمات العنيفة التي لاتزال الكثير من الفلسفات تشنها عليها، بل إن مجال بحثها قد اتسع وكذلك مباحثها اتسعت، فبعد أن كانت أسئلتها أنطولوجية تتعلق بالوجود فقط، فهي بعد ظهور الإبستيمولوجيا قد ارتبطت بها واتخذتها مبحثا من مباحثها، ومثال ذلك أن الأسئلة التي طرحها الفلاسفة حول مصادر المعرفة وإمكانيتها والتساؤل عما إن كانت هناك حواس أخرى غير التي يمتلكها الإنسان هي أسئلة إبستيمولوجية ذات أساس ميتافيزيقي، ومن المؤكد أن سبب تطور الميتافيزيقا راجع إلى مدى تطور الوعي البشري، وعلى العموم، فإن الميتافيزيقا ظلت طوال تاريخها تهتم بمواضيع ظلت ثابتة معها إلى حد الساعة مثل: الوجود الإلهي كما تقدم سلفا، وجود العدم، الزمان، المكان، المادة، السببية، الجوهر.

نستنتج من خلال هذا الكلام، أن تطور مجال العلم لم يكن سببا لتخلي الناس عن التفسيرات الميتافيزيقية، بل لم يؤد التطور العلمي والإبستيمولجي إلى تلاشيها، بل على العكس من ذلك، لقد اتسع مجال الاشتغال الميتافيزيقي وتوسعت جغرافية الميتافيزيقا في ساحة الفكر الفلسفي خاصة.

لقد غيرت النسبية العامة تماماً النقاش الميتافيزيقي حول أصل الكون ومصيره، فلو كان الكون ثابتاً لا يمكن أن يكون موجود منذ الأزل، أو لأمكن أن يكون قد تم تكوينه بشكله الحالي عند وقت ما من الماضي، ولكن إذا كانت المجرات تتحرك الآن متباعدة، فإن هذا يعني أنها كانت، ولا بد، في الماضي أكثر تقارباً معاً، وهكذا فإن المجرات كانت منذ ما يقارب الـ 15 مليار سنة (13،7 مليار عام على وجه الدقة) كلها معاً في متفردة. فللكون بداية. حيث الزمان والمكان لا يوجدان على نحو مستقل عن الكون أو أحداهما عن الآخر، فهما يتعينان بقياسات من داخل الكون، ومن الممكن تماماً أن نتصور أن الزمان عند تعيينه بهذه الطريقة، من داخل الكون، ينبغي أن تكون له قيمة بحد أدنى أو أقصى،

وبكلمات أخرى أن تكون له بداية ونهاية، ولن يكون هناك أي معنى لأن نتساءل ما الذي حدث قبل البداية أو سيحدث بعد النهاية، لأنه لا يمكن تعيين أوقات كهذه. (هوكينغ، 2003، ص 40)

5- هل الميتافيزيقا جزء لا يتجزأ من حياتنا ؟

تهتم الميتافيزيقا بالبحث في الخصائص العامة للوجود، ومع العصور الحديثة بدأ هذا المبحث يرتبط بالإبستيمولوجيا لخضوعه لدراسة نقدية لمبادئه، كما هو الشأن مع ديكارت وكانط في الشك والنقد، فضلا عن تحول المقولات الأنطولوجية إلى درجة من الدرجات الخاصة بالمعرفة.

أما ثاني هذه المباحث، فهو الكوسمولوجيا الذي يعني "علم الكون"، والذي يهتم بدراسة قوانين العالم في شكلها العام بحثا عن أصول تكوينه، فهو مبحث بالأساس يهتم بأصل العالم، وهو ما يذكرنا بمناسبة الأمر وبوضوح بالفلاسفة الطبيعيين الأوائل الذين جعلوا من هذه المسألة لب فلسفاتهم.

أما ثالث هذه المباحث، فيتمثل في السيكولوجيا أو علم النفس العقلي، الذي يهتم بدراسة طبيعة النفس البشرية في تركيبها وتفاعلاتها مع غيرها من الأنفس، وكذا الأبدان وكذا مصيرها وكيف كانت، وكيف ستكون إضافة إلى موضوع الإرادة ومشكلة الحرية، أما المبحث الأخير، فهو مبحث اللاهوت أو الثيولوجيا . (إمام عبد الفتاح، 2005، ص 63)

تكشف مباحث الميتافيزيقا بمضامينها إذن، إنها لا تتعارض مع اهتمامات الإنسان، ولان كيان الإنسان ينقسم إلى ما هو معنوي تجريدي وما هو مادي فيزيولوجي فان التفكير الميتافيزيقي لا ينفك عن الوجود الإنساني بما في ذلك الاهتمامات الطبيعية؛ فالإنسان في مناقشة التصورات الميتافيزيقية وحتى أثناء عمليات التحليل وإصدار الأحكام، لا يبتعد

عن التصورات التي يستعيرها في العالم الحسي شكلا أو مضمونا، كما أن المعطيات والمسلمات التي يتبناها، سواء من منطلق الخبرة العقلية او التجريبية أو إلى غير ذلك من الخبرات المتاحة أمامه، تمثل الأرضية التي يبني عليها بناءه الميتافيزيقي الذي بسبب علوه وارتفاعه عن الأرضية الحسية يبدو مفارقا لمعطيات العالم الطبيعي ومخالفا للاهتمامات التي يفرضها علينا، ومخالفا لاهتمامات الإنسان، وهذا يمثل أحد أهم الأسباب الداعية إلى رمي الميتافيزيقا وكل فلسفة داعية إليها في النار، والحكم على أهلها أنهم أناس يمارسون عبثا وترفا فكريا.

لا يمكن فصل الميتافيزيقا عن الفلسفة، فالفلسفة تستند بقوة على الميتافيزيقا، ذلك أن هذه الأخيرة تمثل دعامة أساسية من دعائم الفلسفة، التي لا تقوم إلا بها، وهو ما يوضحه لنا الدكتور محمد توفيق الضوى في كتابه "دراسات في الميتافيزيقا" بقوله: "للفلسفة دعائم أربع هي المنطق والميتافيزيقا ونظرية المعرفة والقيم".

لذا نجد الدكتور محمد توفيق الضوى يؤكد العلاقة بين الفلسفة والميتافيزيقا، رغم أن الفلسفة في الكثير من أوجهها تتصف بطبيعة ميتافيزيقية، وبما أن قيمة الشيء لا تظهر للعيان إلا حين فقدانه، ففصل الميتافيزيقا عن الفلسفة في هذه الحالة شبيه بنزع الروح عن الجسد، فلا حياة لفلسفة دون ميتافيزيقا، لأنها ستكون عرجاء في جميع آلياتها بسبب بتر الدعامة الميتافيزيقية، إن لم يكن ذلك بترا للفلسفة في حد ذاتها.

تغطي الميتافيزيقا مساحات شاسعة من القضايا الفلسفية، مثل علم الجمال، الأخلاق، فعلى سبيل المثال فالفيلسوف الألماني إيمانويل كانط يؤلف كتابا عنوانه "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق"، وهو بعد دراسته للأخلاق بشكل فلسفي نقدي أراد أن يخضعها لدراسة ميتافيزيقية؛ أي للبحث عن مدى حقيقة ما توصل إليه في مرحلة أخرى للتفلسف يمكن وصفها بأنها نقد للنقد، على اعتبار أن الذات المتفلسفة عند كانط هي

ذات ناقدة، وعمل الفلسفة الرئيس في كل مرحلة من مراحلها لا يجب أن يخلو من الطابع النقدي، وعلى هذا الأساس، فإنه يمكن القول بأن الميتافيزيقا عند كانط بمثابة "نقد للنقد"؛ أي نقد للمنتوج الفلسفي الذي قام على نقد منتوج فلسفي آخر. والقصد هاهنا أن الميتافيزيقا بوصفها ذات بنية فلسفية تقوم على النقد، فإنها في نفس الوقت موضوع ومنتوج فلسفي يخضع لنقد الفلسفة أيضا. (توفيق الضوى، دت، ص 56)

6- وايتهد من التفكير الرياضي المنطقي الى الاعتقاد الميتافيزيقي

لقد كان الظنُّ بادئ ذي بدء أن وَايتهد بدأ حياته الفكرية رياضيًّا؛ علميَّ التفكير، لكنه انتهى آخِر الأمر إلى شطحاتٍ ميتافيزيقية لا تمتُّ بسببٍ إلى حياته العلمية الأولى. لكن الأبحاث التي أخذَتْ هذه الأعوام الأخيرة تثْرى عن فلسفته، تُوضِّح كيف يتَّسِق إنتاجه أوَّلًا مع آخِر، فلا فرق بين علميَّته الأولى وميتافيزيقيته الأخيرة في المبدأ والأساس، بل هما تعبيران عن فكرٍ واحدٍ مُتَّسِق مع نفسه. (محمود، 2017، ص 127)

أما الأسباب التي جعلت من وايتهد يتحول من التفكير الرياضي إلى التفكير الميتافيزيقي فيمكننا حصره فيما يلي:

1- وايتهيد كان متأثراً بالطابع العملي وعلى الرغم من أن الطابع العملي يستدعي تفكيرا تجريبيا إلا انه من خلال تفسيره للطبيعة يؤكد على أن التجريبية في حد ذاتها تستند إلى بديهيات ميتافيزيقية لا يمكن إنكارها.

2- وايتهيد أراد أن يمضي إلى الأشياء ذاتها، بمعنى انه لا يفكر في طريقة الانتقال إلى الأشياء بقدر ما يفكر في غاياتها.

3- تأثر وايتهيد بأزمتي الرياضيات والطبيعيات.

4- تأثر ميتافيزيقا وايتهيد بالعلم، فالفكر الميتافيزيقي الذي يصبوا إليه وايتهد لا يتعارض كليا مع ما وصل إليه العلم آنذاك، فقد أكد بان الميتافيزيقا لا تقتصر بالضرورة على الكلام الفارغ من المعنى مثلما يعتقد أنصار الوضعية المنطقية، لأنها هي الأخرى يمكنها أن تستند إلى أسس علمية.

لم تكن فلسفة وايتهد تلقى من اهتمام الباحثين إلَّا قليلًا، وذلك يرجِع أولًا إلى المَوجة المُعاصرة في الفلسفة، أعني تلك الاتجاهات التي تمقُت الميتافيزيقا مقتًا يجعلها لا تصبِر على فيلسوف مِثل وايتهد، إلَّا يكن شبيهًا بالفلاسفة المِيتافيزيقيّين القُدامى في مضمون بناءاتهم الفلسفية، فهو على كلّ حالٍ ينزع منزعهم في طريقة التناوُل، ويرجع ثانيًا إلى صعوبة فلسفته التي امتزجت بطابع رياضي منطقي وميتافيزيقي في نفس الوقت.

كما أننا نجد كتابات وايتهد الميتافيزيقية الأخيرة ما هي إلَّا امتدادات وتطبيقات للمنطق الرياضي الذي اشتغل به في الشطر الأول من حياته الفكرية، لكن الأعوام الأخيرة قد شهِدت تغيُّرًا في موقف الدارسين إزاء وايتهد، فرأيْنا المؤلِّفين والمُعلقين يتَّجِهون إلى ما كانوا قد أهملوه؛ وذلك لأنهم وجَدُوا في كتاباته مناقشةً دقيقةً عميقة لكثيرٍ من المشكلات التي يهتمُّ بها فلاسفة العِلم في يومنا الراهن، فلعلَّه أن يكون من طليعة الفلاسفة الذين استخدموا المنطق الرمزي في مُعالجتهم للمشكلات المُجسَّدة التي تُصادفنا في مجرى الخبرة. (محمود، 2017، ص 129)

7. خاتمة:

الميتافيزيقا هي ليست تجاوزا للواقع وليست ابتعادا عنه كما يعتقده البعض وعلى رأسهم أنصار الوضعية المنطقية، بل هي التعمق في ذلك الظاهر والكشف عما يخفيه من حقائق وراء ظاهر حسي مقنَّع، من شأنه أن يخدعنا، حقائق ترتقي بالمعرفة الظاهرة من إطارها الحسي إلى إطار أرقى، هو الإطار الخالص والمجرد، والهدف في نهاية المطاف فلسفي وعلمي في آن معا هو بلوغ اليقين الذي لن يكن يوما من نصيبها، فما حظ كل المساعي التي تسلك سياقاتها سوى

الظفر بمقاربات تبرهن على نفسها مستدلة بحجج، لتكتسب طابعا من المعقولية، حتى يمكن الاعتماد عليها كفرضيات أو كمبادئ لإتمام صرح الفكر الإنساني الذي لا ينتهي.

إن علاقة الميتافيزيقا بالعلم تكاد تكون متداخلة ومتنافرة في نفس الوقت حسب تعبير وايتهد، فهي متداخلة من حيث الأهداف والغايات التي يسعى كلا منهما إلى الوصول إليهم، ومتنافرة من حيث النتائج المتضمنة في المقدمات، لأنها في هاته الحالة تكون مصادرة عن المطلوب بلغة المنطق، أي أن العلم أحيانا يحمل الميتافيزيقا ما لا يمكنها أن تتحمله لذا ينظر إليها أنها بليدة ولا تكاد أن توصلنا للحقائق ، حيث إنه في العالم القديم لم يكن الناس يكادون يفرقون بين العالِم والميتافيزيقي، كما هو شأن طاليس الذي كان يعد من أكبر علماء الطبيعيات في عصره، والذي طرح سؤالا حول مصدر الوجود كسؤال ميتافيزيقي، وفي نفس الوقت هو سؤال في العلم الطبيعي الذي يهدف معرفة المادة النواة للكون أو المشكلة الخاصة بالبنية الكونية والمادية للعالم

لقد رأى وايتهيد أن العلم الطبيعي قد بلغ مرحلة أصبحت الحاجة فيه ماسة لإيجاد إطارات جديدة ومفاهيم حديثة تعكس روح العصر بأمانة وتجسد حقيقة التقدم الذي أصابه، ولأن العلم قد امتد في عصرنا هذا إلى شتى مناحي الحياة، واستتباعا لما يشيد العلم عليه بناءه في قواعد عامة وأسس ثابتة وشاملة فإنه قد بات لزاما على الفلسفة أن تظهر تلك الأسس الشاملة للنظر فيها وتبرز القواعد العامة التي ترتكز عليها، بقصد تمحيصها والنظر في صلاحيتها يرى وايتهيد أن فيزياء نيوتن كانت تعتمد في كثير من جوانبها على مغالطات وأسس واهية

قائمة المصادر والمراجع

1- إمام عبد الفتاح إمام، (1993) ، مدخل إلى الميتافيزيقا, ط1، شركة نهضة مصر, القاهرة.

2- توفيق الضوى محمد، (دت) ، دراسات في الميتافيزيقا، دار الثقافة المصرية, مصر.

3- رجب محمود، (1986) ، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين, ط2، دار المعارف, القاهرة.

4- محفوظ زكي نجيب،(1993) ، موقف من الميتافيزيقا، ط3، دار الشروق, بيروت.

5- محفوظ زكي نجيب،(2017) ، من زاوية فلسفية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.

6- هوسرل ادموند،(2007) ، فكرة الفينومنولوجيا, تر فتحي انقزو، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت.

7- هوكينغ ستيفن، (2003) ، الكون في قشرة جوز، تر مصطفى فتحي، سلسلة عالم المعرفة, الكويت.

8 -Whitehead, Alfred North,(1949) , immortality. Essay in Science and philosophy, philosophical library, new york.

9 -Whitehead, Alfred North,(1955) , adventure of ideas, new American library, new york.

10 -Whitehead, Alfred North,(1978) ,Process and Reality, the free press , New York.

11 -Wisdom, John Oulton,(1947) , The Metamorphosis of Philosophy, Al-Maaref Press, Cairo